٣٤٧ وقتل من خيلنا ٤٧٥ فرساً وجرح ٤٣ نبقي الاحياء من فرسانها في الوادي حينما عدنا ثم عادوا الينا فرادى وازواجاً

ورأيت رفيقاً لي وانا عائد وهو يكاد يقع عن ظهر جواده فسألتهُ عن امره فقال ان رمية اصابت رجلهُ فقلت لهُ تمكَّن في سرجك واخذت بلجام فرسهِ بيدي وسرت مع بقية الفرسان فنجونا كلانا وأرسل هو الى المستشفى ثم اتاني منهُ كتاب بعد حين يقول فيهِ انهُ بلغهُ انني رُقيت وسامير جنرالاً فاجبتهُ نعم اني على الطريق قد صرت اونباشياً

ولا يزال الخلاف قائماً على كيفية وقوع الخطاء في الامر وعلى ما اذا كان البوق قد امر بالحملة ام لا . فقد كان الامر اولاً "سيروا" ثم "تقدموا الخيب" ولما رأى رجالنا انهم باتوا هدفاً للنيران الآكلة لم يطيقوا صبراً على تلك الحال فاطلقوا لجيادهم الاعنة وحملوا تلك الحملة الهائلة . ولكني لم اسمع البوق يأمر بالحملة ولا سمع ذلك غيري من الذين شهدوا المعركة ولا يزالون احياء يرزقون

واسهب الكاتب في وصف فظائع تلك المعركة وشراسة الانسان اذا ثارت فيهِ القوة الغضبية وقلة جزاء الدول لابنائها الذين يسفكون دماءهم في سبيلها . وذلك كلهُ من الامثلة الكثيرة على فظاعة الحروب وعلى جنون الناس الذين لا يزالون يعوّلون عليها للفصل في خصوماتهم

وراثة الذاكرة

ملخص مقالة نشرت في مجلة القرن التاسع عشر بقلم القس فوربس فيلبس

قلما نرى احداً الاَّ ويخبرك انهُ زار مكاناً لم يزرهُ من قبل او رأى منظراً لم يرهُ من قبل فلم تدهشهُ تلك الزيارة ولا تلك الرؤية كأنهما شيئان عاديان لا جديدان فيقول في نفسهِ "يلوح لي اني عرفت هذا المكان ورأيت هذا المنظر قبلاً فوراء تلك الهضبة قرية وفي آخر هذا الشارع ساحة" ويكون كذلك . واني قاصٌّ ما خبرتهُ بنفسي من هذا القبيل فاقول

زرت رومية منذ عشر سنوات لاول مرة فلما رأيت بعض آثارها القديمة المشهورة مثل حمامات كركلاَّ والكولوسيوم (مشهد الالعاب الرومانية) وسراديب كالكستوس وغيرها خيّل لي اني رأيتها قبلاً فلذلك لم تدهشني رؤيتها فقلت لعلَّ السبب في ذلك اني رأيت صورها

قبلاً ولكن هذا يفسّر منظرها الخارجي ولا يفسّر منظرها الداخلي . وبعد ايام قليلة ذهبت الى تيفولي فلما وصلتها ورأيتها في وما حولها من الضواحي كنت كأني لم أرَ منظرًا جديدًا بل كأني أرى قرية ولدتُ وربيت ونشأت فيها . فجعلت أصف لرفاقي ما كانت عليهِ في القدم وصفًا مطولاً دقيقًا ولم أكن قد قرأت عنها شيئًا فاستدلّوا اني درست تاريخها درسًا خصوصيًا ثم أخذ ذلك المنظر يتوارى من مخيلتي فلم أعد استطيع ان اقول شيئًا جليًا عنهُ بل بقيت فيها ذكرى اشياء متقطعة لا يشفي وصفها علة ولا يروي غلة

وزرت مرة أخرى انا ورفيقي بي مكانًا في انكلترا لم نزرهُ قبلاً فقال لي في عرض حديثهِ معي " يقولون ان في هذه الناحية قسمًا من طريق رومانية قديمة ولكني لا اعلم هل هي في هذه الجهة او الجهة المقابلة " فقلت " انا اعلم " ومشيت امامهُ وانا موقن اني مهتدٍ الى غرضي لا محالة وكان كذلك . فشعرت حينئذٍ اني زرت ذلك المكان من قبل فارسًا مدرّعًا

فهاتان الحادثتان وامثالها حملتاني على مخاطبة اصدقائي في هذا الموضوع فقصّ عليَّ كثيرون قصصًا تشبهُ ما جرى لي تمامًا وهاك ما جرى لقسيس تيرأى مني ومستمع . فانهُ زارني ذات يوم وطلب مني ان ارافقهُ الى حصن روماني قديم يبعد نحو اربعة اميال عن مسكني لمشاهدة خرائبهِ وقال انهُ يتذكر انهُ كان يسكن هناك في زمن من الازمان وانهُ كان كاهنًا في عهد احتلال الرومانيين لانكلترا . على ان ما ادهشني تشديدهُ في فحص خرائب برج هناك قائلاً " انهُ كان في اعلاهُ نقرة كنا نركز فيها سارية وكان رماتنا يُصعَدون الى رأسها في سلال مبطنة بالجلد ليرموا زعماء القبائل البربرية بنبالهم ايام الحصار " . فوجدنا النقرة كما قال

ومن المسائل التي أُكثر من سؤالها للذين اجتمع بهم عند البحث في هذا الموضوع هو " ألم تشعروا البتة عند رؤيتكم مكانًا لاول مرة انكم رأيتموهُ قبلاً " فكان ٣٠ في المئة يجاوبوني بالايجاب . وكان قليلون يترددون في الجواب خوف الهزء والسخرية او خوف ان يكونوا قد اخطأوا المراد من سؤالي

***

هذا وان تذكر هذه الحوادث وامثالها يختلف كلّ الاختلاف عن تذكرنا حلمًا قديمًا عند سماعنا اياهُ يعني بعد ان كدنا ننساهُ وعن تذكرنا وجه رجل عرفناهُ قبلاً ثم كاد طول الزمان يمحو أثرهُ من ذاكرتنا . فان عند سماعنا ذلك اللحن ورؤيتنا ذلك الوجه نأخذ نتذكر تدريجًا انهما من محفوظات اختبارنا الماضي وانما نسيت عليهما عناكب النسيان واما تذكرنا

الحوادث المذكورة آنفاً فشعور فجائي بانا وُجدنا في زمن ماضٍ في مكان لا نعلمهُ ورأينا تلك الحادثة واشتركنا فيها بوجه من الوجوه

وليس هذا الامر القريب من تخيلات الشعراء او احلام النائمين ولا هو بالامر الحديث عهدهُ . فقد نشأ في الشرق مهبط الوحي ومصدر الاديان وكان لهُ فلاسفتهُ وشعراؤهُ وهو ظاهر كل الظهور في البوذيَّة والديانة المصرية القديمة . وقد بحث افلاطون فيهِ وسماهُ تذكر الوجود السابق او الاشياء التي عرفت قبلاً ونُظرت . وفسرهُ اليهود والفريسيون بما مآلهُ ان الابرار يستطيعون ان يعيشوا ثانية كما نصَّ عليهِ يوسيفوس . وكان البعض يعتقدون ان يوحنَّا المعمدان انما هو ايليا متجسدًا ثانية كما ورد في الانجيل . وبحث آباء الكنيسة المسيحية الاولون فيهِ فسموهُ تارةً التقمص او التناسخ وطورًا التجسد واعتقد بعضهم ولا ريب ان امثال الحوادث المذكورة آنفاً انما تفسر بالوجود السابق . وذكرهُ كثيرون من علماء الالمان مثل لسنج وهيجل وليبنتز وهردر ونيتشي . ومن شعراء الانكليز مثل شلي ووردسورث . قال ورد سورث " ان ميلادنا انما هو نوم ونسيان والروح التي تطلع معنا وهي كوكب حياتنا قد غابت قبلاً في مكان آخر واتت من منزل بعيد "

***

وبعد ان ذكر كاتب المقالة هذه الحوادث وامثالها تقدَّم الى بيان سببها الطبيعي فقال عندي سؤال اسألهُ في هذا المقام وهو ألا يمكن ان يكون هناك شيء نسميهِ وراثة الذاكرة . فان الولد قد يرث بعض ملامح ابويهِ وصفات جدَّيهِ افلا يمكن ان يرث شيئاً من ذاكرة اسلافهِ . او لا يمكن ان تكون تلك التذكارات تنبُّه شيء موجود في دماغنا كان نسياً منسياً فلما صادف الاحوال الملائمة لهُ ظهر من عالم الخفاء . فاذا صحَّ ذلك فان لنا في وراثة الذاكرة حلاً طبيعياً لكثير من الاسرار التي تعرض لنا في حياتنا من غير ان نلجأ في حلها الى الوحي والالهام

ومن المعلوم ان كثيرًا من اخلاق السلف الاول وصفاتهِ انطبع على اذهان خلفهِ حتى ان ما كان في بادىء الامر ارادة بات الآن حركة غير اختيارية . ألا تراني اذا مشيت في طريق منفردة مظلمة انظر ذات اليمين وذات اليسار ومن فوق كتفي . فكيف اعتدت هذه العادة ألا يمكن ان تكون قد اتصلت اليَّ بالارث من السلف . فان السلف المتوحش تعلَّم باختباره الطويل ان يكون على حذر اذا جاز مكانًا منفردًا مظلمًا

واذا لعبت يراعي سورة الغيظ والحنق تكربشت يداي وتوترت شفتاي وكشرت عن

امتاني كن يتحفز للوثوب وهذا كان شان السلف الاول عندما كان يثب على عدوّ ليمزقهُ باسنانهِ واظافرهِ. وقد ظالما لحظت انهُ اذا وصف احد شيئًا بقولهِ انهُ كريه الرائحة فتح منخريهِ وحرّك انفهُ حركة غير اختيارية كأنهُ يتذكر قطعة جيفة ادناها السلف من انفهِ ليشمها قبل اكلها فعادتها نفسهُ فجبث وانحتها والقاها الى الارض مشمئزًا منها. زار داروين ذات يوم حدائق الحيوانات في لندن ثم قال "وقفت امام صلّ وضع في صندوق من الزجاج السميك وانا عازم كل العزم الاَّ انكص الى الوراء اذا وثب الصلّ عليَّ (لان يشبهها الزجاج السميك). فلما جمع نفسهُ ووثب وثبتهُ المعهودة خانتني عزيمتي ونكصت الى الوراء بضع خطوات بسرعة غريبة وذلك لان وهمي كان اضعف من ارادتي وادراكي"

وفي خلال كل يوم نبدي حركات واشارات مختلفة بلا انتباه لها ولا تخطئ فيها لان العادة نقينا من الخطاء. فاني انهض صباحًا من فراشي واغتسل والبس ملابسي وانا لا اكاد اشعر بما فعلت. وذلك لان كل خلية من خلايا الدماغ التنت وظيفتها حتى اصبحت قادرة على اتمامها بلا مشاورة العقل ونشأ في الذهن آلة فرعية تتمّ وظيفتها بنفسها وتمتزج بطبيعتنا حتى تصير وراثية. وعلى هذا المنوال نعتاد رؤية مكان حتى تطبع صورتهُ في ذهننا ويتوارثها الخلف عنا

ولقد سمعت غير مرة اناسًا يحتضرون وهم يقولون "يخيَّل لنا ان ما يجري الآن قد جرى ايضًا في حياتنا سابقًا مع علمنا ان ذلك ليس بصحيح ونكننا نحاول تذكرهُ فلا نستطيع" والسبب في ذلك ان في اعماق الذاكرة اثرًا يُعدّ الامر الحاضر امامنا صورة لهُ

ثم انا نحلم باشياء لم نرها ولا سمعنا بها ولا وقعت تحت اختبارنا في ساعات يقظتنا. حلمت ذات ليلة اني اشهد معركة وانا في اورطة من الفرسان وقد أُمرنا بالهجوم وكان بجانبي فارس اتذكر الآن صورة وجههِ جليًا حتى لو كنت مصوّرًا لاستطعت تصويرهُ. وفجأة تتفرق العدوّ امامنا شمالاً ويمينًا واذا ببطرية مدافع قد استقبلتنا من الامام بنيرانها وعقد الدخان والغبار سحائب فوق رؤوسنا وبتنا نسبح في بحر من الحديد والدماء. فاستفقت اذ ذاك مذعورًا واذا اصيح قائلاً "اعوذ بالله اني لم ارَ مثل هذا قبلاً" فهذه الحادثة بمنظرها الرائع جرت لاحد اسلافي بلا ريب فتوارثوها خلفًا عن سلف. وقد ظالما خطر ببالي ان احلامنا تصورات حقيقية ورثناها وان تكن على الغالب اضغاثًا لا ارتباط فيها ولا معنى لها

ومثل ذلك يقال في رؤية الخيالات فان زيدًا يرى خيالاً ويقابل بينهُ وبين صور اسلافهِ فيظن انهُ خيال واحد منهم لانهُ يشبههُ وتعليل ذلك ان احد اسلافهِ رأى رجلاً في القرون السالفة وكانت رؤيتهُ اياهُ على صورة اثرت في ذهنهِ تأثيرًا شديدًا فانتقلت الى زيد بالوراثة